

في معنى الجريمة

الذهول الذي صاحب اغتيال سمير قصير يجب ان لا يمنع زملاءه ورفاقه من التفكير العميق في معنى الجريمة ودلالاتها. نحن لسنا امام فيجعة شخصية فقط، ولسنا امام مجرد تحذّر للصحافة والثقافة في لبنان والمشرق العربي، بل نحن امام منعطف كبير بدأ بالاغتيال الوحشي الذي قتل سميرنا، وسوف يتخذ مسارات مختلفة من اجل تحقيق اهدافه.

قبل ان اقرأ الجريمة، اريد ان اتوقف عند مسألتين: الاولى، تبدأ بالكلام الشائع عن جراءة قصير وشجاعته، لكي تصل الى "نزقه" و"تموره". كان هذا الكلام يريد ان يحتمل الشهيد مسؤولة موته! اصحاب هذا الرأي، وأكثرهم لا ينقصه الاخلاص (لا اريد ان اتكلم هنا عن اصحاب النيات السيئة والاقلام المستأجرة، لأن لا مكان لهم الا في المستقبل)، يستخدم استشهاده سميرنا من اجل التحذير طلباً من اصحاب الاقلام التروي، وان "ينتهيوا للحالهم... والى آخره..."

الى هؤلاء نقول انه يجب التمييز بين الطليعية والتمور. لم يكن قصير تمورا، صحيح انه كان جريماً والا فلماذا الكتابة، بل كان طليعياً، وطيبيته كصفاي نحتل في وضع النقاط على الحروف. اي في ممارسته الكتابية في وصفها مرفقة، قطع سمير قصير مع التقليد الصحافي الذي صفعه زمن الانحطاط المخابراتي في المشرق العربي، وتخلّى عن اللغة الخشبية وكتابة الاحجيات القامضة والاستناد الى مصادر لا وجود لها. سمى الأشياء وهذا واجب، ودافع عن الحرية وهذا خياره، وكتب الحقيقة، اما طليعيته كمثقف ومناضل فقد تسمدت من خلال استعداده الجانب المشرق في الفكرة العربية. اي ان كتاباته كانت مواصلة لنضال النتمضيين ضد الاستبداد والاحتلال، ودعوة الى التنوير. لذا كان سوريا وفلسطينا ولبنانيا، اي حمل الممّ العربي المشترك واعاد غرسه في وطنية لبنانية مفتحة وديموقراطية.

الثانية، تتعلق بوضع الاغتيال في سياق محاولة النظام الامني السوري اللبناني قتل الثقافة الاستقلال وتوجيه ضربة قاصمة الى النموذج النضالي الذي جسده سمير في ساحة الحرية. هناك تحول المثقف قائداً جماهيرياً، وتمت استعادة انبل ما في التراث النضالي اليساري اللبناني والعربي المثقف والمؤرخ والصحافي والجامعي يمزج الكلمة بالفعل محوّلًا الكلام جسداً ينتفض ويتظاهر، بحيث يصير سلاح النقد نقداً شعبياً لا سابق له. اغتيال سمير ليس حدثاً عادياً يمكن احضاره الى السجل الأسود الذي يمتلئك جواز القتل المخابراتي. انه رسالة الى ثلاثة اطراف كان الشهيد جزءاً مضمناً فيهم.

اوه اول رسالة الى بيروت. المدينة التي كتب سمير تاريخها، والتي تعرضت للفلسف المتعادي، وافرغت من مضمونها الحداثوي والديموقراطي والنضوي في يد المخابرات والأجهزة الامنية، بدأت مع اقام كتابها ومع انفتاحها على المعارضات العربية، وخصوصا السورية، تتنفس هواءها التنظيم من جديد. ومع انتفاضة الاستقلال بدا كان المدينة نجحت في عبور الصحراء.

الاصوات الطليعية والشجاعة التي افتتحت المرحلة استطاعت اخيراً ان تجد صدامها، والمدينة التي اتشحت بالخراب طويلاً اعاد الناس الذين انتفضوا في ساحتها اعمارها بالحربة. قتل سمير بهذه الوحشية دليل على ان قتلته بيروت يريدون اغتيال المدينة من جديد. وان استعادة بيروت حريتها تشكل الخطر الاكبر على انظمة الانقلاب بمخابراتها ومافياتها ولصوصها.

وهو ثانيا رسالة الى الصحافيين والمثقفين اللبنانيين. لم يكن التوقيت عشوائياً. اغتالوا سمير قصير صباح الخميس، قتله في اليوم الذي يكتب فيه مقاله الاسبوعي. وبدل ان تصدر الصفحة الاولى من "النهار" صباح الجمعة بمقاله، صدرت بصورته شهيداً. الرسالة موجهة الى الكتابة والصحافة. نظام القمع لا يريد كسر الاقلام فقط، بل يريد كسر اجسادنا المشمة وتحطيم روح المقاومة فينا. هكذا يستكمل سميرنا الصورة التي رسمها القاتل حين اغتال حسين مروة ومهدي عامل، منتقماً من هزيمته المدوية امام الكلمة.

وهي ثالثا رسالة الى اليسار اللبناني والى كل الديموقراطيين والعلمانيين في لبنان والمشرق العربي. سمير قصير الذي ساهم في تأسيس حركة اليسار الديموقراطي وكان من قياديهما البارزين، كان يعي ضرورة اليسار وضرورة تجديد فكرة العدالة الاجتماعية وربطها بالحدائثة والجمال والديموقراطية. ولقد رأينا في تشييعه المهيمن ان اليسار والفكرة العلمانية يجمعان ما يعجز التنظيم السياسي عن جمعه، وانهما يعبران عن جديد يتشكل في الوعي والواقع. جاء الاغتيال من اجل قتل الجنين الذي يحبل به المجتمع اللبناني قبل ان يولد، ومن اجل توجيه رسالة واضحة الى القوى اللاطائفية بانما ممنوعة اليوم ملثما كانت ممنوعة في الماضي.

الحيرة التي انتابت البعض حول حادث الاغتيال ودلالاته، نامة عن سوء تقديرها الرمزية الكبرى التي تحمها المستويات الثلاثة التي وجهت اليها الرسالة المدوية. صحيح ان المثقفين والصحافيين الشرفاء لا يشكلون قوة عديدة، وليسوا مرتطبين بطوائف تحميمهم، وصحيح ايضا ان بيروت الثقافية والفكرية الهضوية تبدو عزلاء في صحراء القمع العربي، وصحيح اخيراً ان العلمانيين واليساريين لا يشكلون قوة سياسية ضخمة في لبنان او المشرق العربي، لكن الصحيح ايضا ان هذه القوى الثلاث تمتلك طاقة رمزية قادرة على زحزحة الجبال. هذه القوى، اذا اجتمعت، تمتلك الأفق المستقبلي كله. قاومت الاحتلال السراييلي، اطلقت انتفاضة الاستقلال، رسمت فلسطين بالعدل والارادة، حملت همّ الديموقراطية والعروبة ومحقق الانسان في سوريا، واعادت صوغ وطنية لبنانية يشكل الممّ النضوي العربي عنواها الاول. الرسالة واضحة، وجوابنا واضح. الاقلام لن تكسر وبيروت تقاوم. والنضال من اجل العدالة وبناء افق ديموقراطي يساري وعلماني يصنع النهضة في لبنان وفلسطين وسوريا مستمر حتى يطلع الفجر.